

الكاتب المصري



نوفمبر ١٩٤٥

ذو القعدة ١٣٦٤

مجلد ١ - عدد ٢

شاعر الحب والبغض والحرية

كان ذكي القلب، حمي الأنف، غضب اللسان. وكان قوياً لا يعرف الضعف
أيئاً لا يقبل الضيم، عصبياً لا يطيق الإذعان. وكان حازماً لا يحب التردد
مقدماً لا يهتمل الأحجام. ولم يكن مع ذلك صريح النسب في قبيلة من القبائل
العربية القوية أو الضعيفة. ولم تكن قوته وصلابته وحدته تأتيه من جاه
طريف أو تليد، ولا من زوة عريضة أو ضيقة. فقد كان فيها يظهر مغموراً
مضيقاً بين حمير وقريش، ألحق نفسه بحمير بعد أن أصبح له شأن ويمد أن
رأى أنه في حاجة إلى نسب يعتز به وركن يأوى إليه. وألحق نفسه بقريش على
أنه حليف من حلفائها وولي من أوليائها، فاجتمع له بذلك نسب يمانى في حمير
وحلف مضرى في قريش، على حين لم يستطع أحد من الرواة والنسابين أن يصله
بقبيلة من قبائل اليمن ولا أن يرتفع به إلى أعلى من جده الأدنى. فكل ما يعرف
الرواة عنه أنه زيد بن ربيعة بن مفرغ. ولعل الرواة لا يتفقون على اسم مفرغ
هذا؛ فقد روى أن اسمه محمد، وأن مفرغاً كان لقباً غلب عليه. وأصل هذا
اللقب فيما يقال أنه راهن على أن يفرغ في حوفه عُساً من لبن ففعل، فسمى
مفرغاً. وقد يكون هذا حقاً، وقد يكون الحق شيئاً آخر لانعرفه، ولكن
المهم أن مفرغاً هذا لم يكن رجلاً ذا خطر، وإنما كان شعاباً في المدينة أو قريباً
من المدينة. وكان ابنه ربيعة فيما يقال صاحب شعر وغزل. وكان له ابن آخر
يسمى عامراً، وكان صاحب زهد ودين. فأما صاحبنا زيد فلم يعرفه تاريخ
الشعر ولا تاريخ السياسة إلا حين تقدم به الشباب وحين أصبح شاعراً ظريفاً

شاعر الحب والبغض والحربة

رائع الشعر حسن المحضر ، يتنافس فتیان قريش في قربه ومنادمته واصطحابه فيما يعرض لهم من الأسفار .

وأكبر الظن أنه انتفع بحِلْفِهِ في قريش ، فعاشر فتیان بنی أمية في العراق وآثرهم بمودته ، وآثروه بمعرفتهم لحسن موقعه منهم ، ولحسن بلائه في التعصب لهم والثناء عليهم . وأول ما نعرف من أمره معرفة دقيقة هو أن شاين من شبان بنی أمية تنافسا فيه . فأما أحد هذين الشاين فسعيد بن عثمان بن عفان ، وأما الآخر فعباد بن زياد بن أبي سفيان . وكان أول هذين الشاين قد ولي خراسان ، وكان الآخر قد ولي سجستان . وقد عرض سعيد بن عثمان على صاحبنا يزيد أن يصحبه إلى ولايته ، وأغراه بمال كثير وبأنه سيكون عندما يرضيه . ولكن يزيد لم يجب سعيداً إلى ما أراد ، وآثر أن يصحب عبادة إلى سجستان . وقد أسف سعيد لانصراف هذا الفتى الظريف عن صحبته إلى صحبة عبادة ، ولكنه مع ذلك حذره ونصح له ، وقال له إن نَبَتَ بك الدار عند عبادة ولم تبلغ من صحبته ما تريد فإن مكانك عندي ممد .

وليس من الغريب أن يزهد يزيد في صحبة سعيد بن عثمان ويؤثر عليها صحبة عبادة بن زياد . فقد كان سعيد بن عثمان معروضاً لشيء غير قليل من سخط السلطان الأموي عليه وزهده فيه . ومصدر ذلك أن أبناء عثمان رضی الله عنه قبلوا ولاية معاوية بخلافة المسلمين لأنه قام دونهم بعد مقتل أبيهم ، فنأثر لهم وحمل بنی أمية على رقاب الناس . ولكن شيئاً من الحسد وقع في قلوبهم حين بايع معاوية لابنه بولاية العهد . ويقال إن سعيداً نفسه صرح معاوية بانكاره لذلك في شيء غير قليل من العنف ، وإن معاوية رفق به كما كان يرفق بأعدائه وأصدقائه جميعاً ، وإن توليته خراسان كانت مظهرًا من مظاهر هذا الرفق ولوئاً من ألوان هذه المصانعة . فلم يكن سعيد إذاً أثيراً عند معاوية ولا عند ابنه يزيد ، وإنما كان يحتمل في شيء من الجهد ويستصلح في كثير من الرفق . أما عبادة فقد كان أبوه زياد موضع الثقة والحب من معاوية ، وكان ركنًا من أركان الدولة الأموية الجديدة ، ضبط لها أمر العراق وما يليه ضبطاً حسناً وساسه سياسة حازمة صارمة أخافت الناس في شرق الدولة وغربها . فلما مات زياد وتولى معاوية ابنه غيبد الله أمر العراق اعترافاً بما لزياد عنده من يد . فكان عبادة إذاً ابن أمير العراق القديم وأخا أمير العراق الجديد ، وفتى من فتیان هذه الأسرة العاصمية

شاعر الحب والبغض والحرة

التي مكنت لبني أمية في الأرض . فليس غريباً إذاً أن يؤثر الشاعر الشاب صحبة الأمير الزيادي ذي المكانة والحظوة ، على صحبة الأمير العثماني الذي لا تحتمله الدولة إلا على كره ومضض . على أن عبید الله بن زياد أمير العراق كان يعرف أخاه عبادةً حق المعرفة ، وكان يعرف الشاعر الفتى حق المعرفة أيضاً ، وكان يشفق من محبة هذا الشاعر الفتى لأخيه، ويقدر أن عواقب هذه الصحبة لن تكون إلا شراً . كان يعرف أن أخاه حاد الطبع سريع الغضب شديد العناية بما يكلف من أمر ، يفرغ للهوه ومتاعه حين يتاح له الفراغ ، ولكنه إذا نهض بأمر ذي بال أقبل عليه وشغل به عن كل شيء . وكان يعرف أن الشاعر الفتى ظريف غزل حلو الدعاية عذب الفكاهة جميل المحضر ، ولكنه شاعر لا يرضى من صاحبه بالقليل ، ولا يقبل منه الانصراف إلى يسير الأمر أو خطيره . وكان يعرف أن الشاعر الفتى يحجل بزق سريع الشعور قوى الإحساس طويل اللسان ، يسرع إليه الضجر ويستأثر به الملل ، ويسبق لسانه إرادته فيتمجج اللوم والهجاء قبل إبانها . ومن أجل ذلك هم أن يصرف الشاعر عن صحبة أخيه فلم يفلح ، فنصح له وألح في النصيح ، وحثه وألح في التحذير والنذير . ومضى الشاعر الفتى مع أميره الشاب إلى سجستان . ولم يبلغ الرفيقان سجستان إلا بعد أن فسد الأمر بينهما أثناء الطريق ؛ فقد كان عبادة عظيم اللحية جدّاً ، فإنه لنى طريقه ذات صباح أو ذات مساء ، وإذا الريح تعبت بلحيته الضخمة فتنفثها ، ويرى الشاعر ذلك فيروقه المنظر ويضحكه ويسبق لسانه إرادته فيقول :

ألا ليت اللّحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسامينا

وقد سمع الرفاق هذا البيت فتضاحكوا ، وسعى بعضهم بالبيت إلى عبادة فوقت الموجودة في قلبه ، وهم أن يبطش بالشاعر ، ولكنه آثر الأناة وأسر الحقد في نفسه . فلما بلغ سجستان شغل بحربه وخراجه وأبطأ على شاعره . وانتظر الشاعر ثم انتظر ، فلما طال عليه انصراف الأمير عنه أطلق لسانه فيه يلومه في أحاديثه ويظهر الندم على أنه قد آثر صحبة عبادة على صحبة سعيد . وتبلغ الأحاديث عبادةً فيضيف غيظاً إلى غيظ وموجدة إلى موجدة ، ولكنه على ذلك لا يبطش بالشاعر فجأة ولا يظهر له بغضاً ، وإنما يدبر أمره تديراً ويحكم الكيد لهذا الشاعر الترق الذي أمكن من نفسه . ومتى استطاع الشعراء والأدباء عامة ألا يمكنوا من أنفسهم ا

فلم يكن صاحبنا يزيد زقاً مجلاً فحسب ، ولكنه كان صاحب لهُو ولذة وإسراف في
 اللهُو واللذة ، وكان صاحب كرم وجود وإمعان في الكرم والجود . وكان
 يداعب آمالاً عراضاً وأمانى كباراً ، وينتظر من أميره عطاءً جزيلاً ، فما الذي يمنعه
 أن ينفق ويتسع في النفقة ، وأن يستدين حتى يفرق في الدين إلى أذنيه !! أليس عطاء
 الأمير سيملاً يديه بالمال ، وسيمكته من إرضاء الدائنين بل من إرضاء الطامعين فيه !
 وكان عباد ينتظره عند هذا المنعطف من سيرته الملتوية المتعرجة ، فما هي إلا أن
 تدس إلى دوائيه من غيرهم بمخاصمة هذا المدين الذي لا يقدر على شيء . فإذا ارتفعت
 إليه الخصومة أمر أعوانه أن يكبسوا بيت يزيد ويبيعوا أثاثه ومتاعه وسلاحه
 وفرسه ، وقد فعلوا ، وبدأ الشر بين الشاعر والأمير . ونظر الأمير فإذا كل ما يبيع
 من متاع الشاعر أقل من أن يؤدي عنه دينه ، فيأمر بحبسه فيما بقي عليه للغرماء .
 وكذلك انتهت المحنة إلى غايتها ، أو قل انتهت المحنة إلى أولها . وكان يزيد
 يملك غلاماً يحبه أشد الحب وجارية يؤثرها أعظم الإيثار . وهم عباد أن يمضي
 في الكيد له والتنكيل به ، فأرسل إليه من يعرض عليه أن يبيعه الجارية والغلام .
 قال يزيد : وهل يبيع الرجل نفسه التي بين جنبيه ؟ قال عباد فيبيعوا عليه جاريته
 وغلامه لمن شاء أن يشتريهما من الناس . وعرض ببرد وأراكة للبيع ، فاشترهما
 رجل من الناس وأقبل يقبضهما . فلما رآه برد قال له : بئس ما اشتريت لنفسك
 من السوء والفضيحة ! قال الرجل : وكيف ذاك ؟ قال برد : فإنك تعلم أن مولاي
 إنما يهجو عبداً وآل زياد وهم الأمراء وأصحاب السيادة والحظوة عند أمير المؤمنين
 لأنهم أبطنوا عليه بالعطاء ، فكيف إذا علم أنك تشتري أحب الناس إليه وأنتك
 تسوؤه بهذا الكيد ! إنها والله الفضيحة لك ولقومك إلى آخر الدهر . قال
 الرجل : فإنني أشهد على نفسي أنك كاه ، وإن شئتما كنتما عندي حتى يخلص من
 سجنه فأردكما إليه . قال برد : فأكتب إلى مولاي بذلك . فكتب الرجل ورد
 عليه يزيد شاكرآله مثنياً عليه ، راغباً إليه في أن يحفظ الغلام والجارية عنده
 حتى يجعل الله له بمد عسر يسرا . وفي هذه القصة يقول يزيد :

شريت برداً ولو ملكتُ صفقته لما تطلبت في بيع له رشداً
 لولا الدعى ولولا ما تعرض لي من الحوادث ما فارقتُه أبداً
 يا برد ما مستنا دهرٌ أضربنا من قبل هذا ولا بعناله ولداً

شاعر الحب والبغض والحرة

أما الأراك فكانت من محارمنا عيشاً لذيذاً وكانت جنة رغدا
 كانت لنا جنة كنا نعيش بها نَفْسِي بها إن خشنا الأزل والنكدا
 يا ليتني قبل ما ناب الزمان به أهلى لقيت على عدوانه الأسدا
 قد خاننا زمنٌ لم نخش عثرته من يأمن اليوم أم من ذا يعيش غدا
 لامتنى النفس في بُرْدٍ فقلت لها لا تهلكي إثر برد هكذا كذا
 كم من نعيم أصبنا من لئذاته قلنا له إذ تولى ليته خلدا
 ويقول في هذه القصة أيضاً ، ولكنه في هذا الشعر لا يكتبني بالحزن على برد
 وأراكه ، وإنما يصور ندمه على فراق سعيد وصحبة عبّاد ، ويهجو عبّاداً هذا
 أقذع الهجاء :

أَصْرَمْتُ جَبَلَكَ مِنْ أَمَامِهِ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ بِرَامِهِ
 فَالْرِجُ تَبْكِي شَجْوَهَا وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ فِي الْغَامِهِ
 لَهْفِي عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَتْ عَوَاقِبُهُ نَدَامِهِ
 تَرَكِي سَعِيداً ذَا النَّدَى وَالْبَيْتُ تَرْفَعُهُ الدَّعَامِهِ
 فُتِحَتْ سَمْرَقَنْدُ لَهُ وَبَنِي بَعْرَصَتِهَا خِيَامِهِ
 وَتَبِعْتُ عَبْدَ بَنِي عَلَا جِ تِلْكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامِهِ
 جَاءَتْ بِهِ حَبْشِيَّةٌ سَكَاءً تَحْسِبُهَا نَعَامِهِ
 وَشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بَرْدِ كُنْتُ هَامِهِ
 هَتَافَةٌ تَدْعُو صَدِّي بَيْنَ الْمَشْقَرِ وَالْيَمَامِهِ
 فَالْهَوْلُ يَرْكِبُهُ الْفَتَى حَذَرَ الْخِزَابِيِّ وَالسَّامِهِ
 وَالْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْمَلَامِهِ

وأكبر الظن أن يزيد قال هذا الشعر في سجنه ، ولكنه لم يدعه إلا بعد حين ،
 حين ظفر بحريته وأصبح بمأمن من عادية عبّاد . وآية ذلك أن الرواة ينبئوننا
 بأن يزيد قد ثاب إلى شيء من الرشد ، أو ثاب إليه شيء من الرشد ، ففرق بنفسه
 واصطنع الحذر والاحتياط ، وجعل لا يذكر عبّاداً إلا حامداً له مثنياً عليه ،
 فإذا ذكر له سجنه ومحتته قال : وأى بأس في ذلك ! رجل أسرف على نفسه فادّبه

أميره ناصحاً له مبقياً عليه. وجعلت هذه الأحاديث الحسان تبلغ عبادا فيرق للشاعر ويعطف عليه ويلتمس له المعاذير، ويذكر أنه هو الذي دعاه إلى صحبته على علم منه بأخلاقه ومواطن ضعفه.

وما زال يزيد يتلطف، وعباد يتعطف، حتى أخرج الأمير شاعره من السجن وقدم إليه بعض الخير. وجعل يزيد يمتثل حتى فر من سجستان ومضى هارباً يترقب ويستخفي حتى انتهى إلى الشام. وكان في أثناء هربه بقول الشعر في هجاء عباد وآل زياد، ويكتبه على الجدران في كل خان ينزل به. حتى إذا انتهى إلى الشام عرف أنه قد بلغ مأمنه وأن يد آل زياد لن تبلغه فأطلق لسانه في غير تحفظ، ونال آل زياد بكل مكروه. ولم يكن آل زياد بمأمن من الهجاء، ولا بنجوة من البغض لهم والوجد عليهم. فقد كانت كثرة قريش تبغضهم أشد البغض، تراهم دخلاء فيها بعد أن استلحق معاوية زياداً في تلك القصة المعروفة. وكان بنو أمية أنفسهم يبغضون زياداً أشد البغض لما نال من الخطوة عند معاوية ولما استأثر به من حكم العراق دون شباب أمية وشيوخها. واشتد بغض بني أمية لزياد وبنيه حين مات فورث ابنه عبيد الله عنه حكم العراق. وكان زياد قد اشتد على الناس وأخذهم بالعنف، فكرهته الشيعة من أهل العراق كما كرهه الخوارج كرها ظاهراً، وكرهه عامة الناس كرها أسروء في أنفسهم ولم يعلنوه إلا حين كانت الفرصة تمكّنهم من إعلانه. ولم يملك شباب قريش ولا شباب الأنصار أنفسهم وأستنتهم فلمجوا زياد وجحدوا بنوته لأبي سفيان وقالوا في ذلك شعراً كثيراً عرفه معاوية ولكنه أغضى عنه تكراً وحلماً وسياسة أيضاً. فانهز يزيد شاعرنا هذا كله وقال في زياد وبنيه أشنع الشعر وأقدهه، فننى زياداً من أبي سفيان، وننى بني زياد من أبيهم وهجّام في أمهاتهم ثم هجّام في أخلاقهم، ثم هجّام في سيرتهم، ثم جعل يحرّض عليهم اليمانية حيناً والمضرية حيناً آخر، وجعل شعره يشيع ويصل إلى العراق ويتنقل بين الأمصار، ويطير على السنة الرواة، حتى ضاق به عبيد الله أشد الضيق، وكتب إلى الخليفة في دمشق يسأله أن يردّ عليه يزيد ليقتله؛ فردّ الخليفة إليه يزيد ولكنه تقدم إليه في أن يعدّبه عذاباً موجماً دون أن يبلغ نفسه.

وهنا نستطيع أن نوازن بين زياد هذا الذي لانكاد نعرف له نسباً في قحطان أو في عدنان وإن ألحق نفسه بحمير وزعم لها حلف قريش، وبين شاعر آخر

معاصر له كان عظيم الشرف رفيع المكانة في قومه عزيزاً بأعظم قبيلة عربية ، وكان في الوقت نفسه أملك للشعر وأقدر عليه من يزيد وهو الفرزدق . فقد ساء الأمر بين الفرزدق وزباد ، وطلب زياد الفرزدق حتى أخافه ، فهرب الفرزدق من العراق واستجار ببني أمية في الحجاز ، وجعل ينتقل بين مكة والمدينة ولكنه كلف لسانه عن زياد فلم يهجه أو لم يكذب هجوه ، وإتما ظل هارباً متحفظاً ، حتى إذا مات زياد عاد إلى العراق وصانع الأمراء من أبنائه ومن غير أبنائه .

ومن المرجح أن مكانة الفرزدق نفسها هي التي اضطرتّه إلى أن يكف لسانه ويؤثر العافية لنفسه ولقومه . فأما يزيد فلم يكن يحرص على شيء ، ولم يكن يخاف على قومه كيداً . فالإمانية إن كان يزيد يمانياً هم قوة أمير المؤمنين وأنصاره لا يستطيع أحد أن يعرض لهم بسوء . وقريش أهل أمير المؤمنين وعشيرته لا يستطيع أحد أن يناهم بسوء . فلم يبق ليزيد إلا نفسه ، ونفسه حرة لا تفرط في الحريّة ، وهي في الوقت مبغضة لالتين في البغض ، ومحبة لاتقصر في الحب .

وقد أبغض زياداً وبنيه ، فيجب أن ينتهي به البغض إلى غايته . ولذلك أدخل على عبيد الله بن زياد حين رُدَّ إلى البصرة فلم يهن ولم يضعف ولم ينكر من سيرته وشعره شيئاً ، وإنما استقبل المحنة شجاعاً جليلاً وصبوراً مستينساً ، وقال لعبيد الله : دونك وما تشاء . وقد أمر عبيد الله به فألقى في غيابات السجن .

ولكن يزيد لم يكف عن الهجاء حتى في السجن ، وقد عذبه عبيد الله عذاباً أقل ما يوصف به أنه لم يكن عربياً ، وإنما كان أعجمياً ينافر أشد المنافرة كرم العرب وكرامتهم وارتفاعهم بأنفسهم وبعدهم عما يشين . وبعض هذا العذاب يذكرنا بما كان يصنع في الأندلس ببعض النافرين ، وبما كان يصنع في إيطاليا بخصوم نظام الفاشية ؛ فقد أمر عبيد الله فسق الشاعر في سجنه نبئداً حلواً فيه مسهل ، ثم قرن إلى كلب وهرة وخنزير وطوّف به في مدينة البصرة على هذه الحال المنكرة ، وجعل الصبية من أبناء الموالي والفرس يتبعونه بالتندر والعبث ، وجعل هو يردّ على تندرهم في لغة فارسية تقلها أبو الفرج ، وجعل الخنزير الذي قرن إليه يضح كلما جره ، وجعل يزيد في هذه المحنة يعبث بسُميّة أم زياد ؛ فقد سمى خنزيره هذا سمية وجعل كلما ضحك الخنزير يقول :

ضحيت سمية لما لزمها قرني لا تميزعي إن شر الشيمة الجزع

شاعر الحب والبغض والحمة

ثم أدركه الإعياء فسقط لما لقي من الجهد ، وأشفق عبيد الله بن زياد أن يدركه التلف فيخالف أمر الخليفة ويتجاوز به العذاب إلى الموت ، فأمر برفعه وغسله وردّه إلى السجن . ثم أمر عبيد الله بحمل الشاعر إلى أخيه عباد بسجستان ليشفي حقه ويرضى حاجته إن الانتقام ، وكلف الذين حملوه أن ينزلوا به في الخانات التي نزل بها حين هرب من عباد ، وأن يضطروه إلى أن يمحو بأظفاره ما كتب على الجدران من هجاء بني زياد ، وأن يحولوا صلته عن قبلة المسامين إلى قبلة النصاري ، فجعل يمحو بأظفاره ما كتب حتى ذهبت أظفاره ، فكان يمحو بعظم أظفاره وبدمه . وما زال في هذا العذاب حتى بلغ عبادة فضعف عذابه في سجستان . ولكن شيئاً من هذا كله لم يضطره إلى الضراعة ولا إلى الاستكافة ، وإنما كان صراع رائع عنيف بينه وبين العذاب ، يصب عليه بنو زياد ألوان الهول ويصب عليهم هو أشنع القول ، وفي نفسه يأس من جهة وأمل من جهة أخرى . يأس من الزمان ألا يمعله ، وأمل في قريش وحمير أن يشفعوا له عند أمير المؤمنين . وقد انتصر الأمل على اليأس ، وسار شعر يزيد في الآفاق وسارت معه أنباء هذا الصراع الهائل بين العذاب والفن . وانهى الأمر إلى قريش في أنديتها بالعراق والحجاز ، وانهى الأمر كذلك إلى حمير في أنديتها بجمص ودمشق ، وغضبت اليمانية والمضربة جميعاً لهذا الشاعر الذي يمدب عذاباً لا يعرفه المسلمون ، وسمى أولئك وهؤلاء عند يزيد بن معاوية ، وما زالوا به حتى أرسل بريداً إلى سجستان وأمره أن يطلق الشاعر من سجنه على الفور ، وألا يأذن لأحد من آل زياد في الإمرة عليه . وأقبل البريد ، فأخرج الشاعر من سجنه وأصلح من أمره وحمله على بغلة من بغال البريد . فلما استوى عليها قال هذا الشعر الرائع المعروف :

عَدَسٌ مَا لَعِبَادَ عَلَيْكَ إِمَارَةٌ تَجَوَّتْ وَهَذَا تَحْمَلِينَ طَلِيقٌ
 طَلِيقٌ الَّذِي نَجَّيْتُ مِنَ الْكَرْبِ بَعْدَ مَا تَلَاخِمُ فِي دَرْبِ عَلِيٍّ مَضِيقٌ
 قَضَى لَكَ حِمَامٌ فَأَنْجَاكَ فَالْحَقِّي بَارِضُكَ لَا تُحْبِسْ عَلَيْكَ طَرِيقٌ
 لَعَمْرِي لَقَدْ أَنْجَاكَ مِنْ هَوَاةِ الرَّدَى إِمَامٌ وَحَسْبُكَ لِلْأَنَامِ وَثِيقٌ
 سَأَشْكُرُ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ نِعْمَةٍ وَمِثْلِي بِشُكْرِ الْمُنْعَمِينَ حَقِيقٌ

شاعر الحب والبض والحربة

وانتهى شاعرنا إلى الشام فأمر أن يقيم في الشام حيث شاء وألا يعرض لآل زياد بمكروه، وأحسن الخليفة صلته تعزية له مما لقي من شر . ووقفت قصته هنا مع آل زياد ولكنها لم تنته . فلم يكن له بدٌّ من أن يدعن لأمير المؤمنين . ولكن شاعرنا لم يكن مبغضاً فحسب ، وإنما كان محبباً أيضاً . ولعل حبه هو الذى جسّمه كل هذه الأحوال .

كان يحب أناهيد فتاة فارسية ، كان أبوها دهقاناً في الأهواز ، وكانت رائحة الجمال فتاة الحسن جريئة على الرجال لعوباً بمقول الناس . وقد لعبت بعقله فأسرفت في اللعب وكلفتها من أمره شططا . وقد أقام في الشام ما شاء الله أن يقيم ، ولكنه لقي رجلا من أهل الأهواز فسأله عن أناهيد قال الرجل : صاحبة يزيد بن مفرغ ؟ قال يزيد : نعم . قال الرجل : ما يرقأ دمعها بكاء على يزيد . فضرب يزيد وجه فرسه وأقسم لا يستقر حتى يرى أناهيد . ومضى مخالفاً أمر الخليفة جاحداً نعمة الذين أجاروه وآووه حتى انتهى إلى الأهواز ، وجعل يتردد بينها وبين البصرة ، ثم دخل على عبيد الله بن زياد ، فخبره بين أن يقتله أو يعفو عنه ، فعفا عنه عبيدالله . ولكن إقامته في البصرة لم تطل ؛ فقد كانت أناهيد تكفه مالا كثيراً ، وكان يستدين ، وكان الدين يثقل عليه ، وكان الأشراف من أهل العراق يؤدون عنه دينه . ولكنه شاعر لا تنقض حاجته ، والأمراء يتنافسون فيه ، فما يمنعه من الرحلة والاكتساب ليفنى نفسه ويرضى أناهيد ، ويذيع البهجة والغبطة من حوله ! وقد فعل ، فرحل إلى عبيد الله بن أبي بكره ورجع من عنده بمال كثير دفعه كله إلى أناهيد . وما زال يتردد بين البصرة والأهواز ينعم ويشرك أترابه في النعيم ، حتى مات يزيد بن معاوية ، وكانت الفتنة في البصرة وهرب عبيد الله بن زياد ، فاستأنف قصته مع آل زياد من حيث وقفت في الشام ، وجعل يهجو زياداً وبنيه ، ويعير عبيد الله بفراره عن أمه ويحرض على آل زياد بشعره وحديثه . حتى إذا قتل عبيد الله يوم الزاب بيد أصحاب المختار لم يستطع شاعرنا أن يخفى شماته ، فتغنى هذه الشماتة في شعر كثير . وظل متردداً بين أناهيد في الأهواز ومجالس لهوه في البصرة ، حتى قتله الطاعون أيام مصعب بن الزبير

وقد قال يزيد شعراً كثيراً جداً ، وحفظت لنا كتب الأدب شيئاً قليلاً جداً من هذا الشعر ، ولكنه على قتله يبين لنا أن هذا الفتى المغمور قد كان شاعر الخوف والحب والحربة حقاً ، ما أعرف أن أحداً من شعراء القرن الأول للهجرة

شاعر الحب والبغض والحريّة

بلغ من تصوير هذه الخصال ما بلغ . ومع ذلك فما أكثر ما عرف ذلك العصر من المبغضين والمحبين ، ومن الخائفين والأحرار ، ومن الذين أتاحت لهم براعة فنية لم تتخ ليزيد ! ولكن يزيد أحب بقلبه كله ، وأبغض بقلبه كله ، وخاف بقلبه كله أيضاً ، وجلّى قلبه المحب المبغض الخائف الحر في شعره دون أن يتكلف في ذلك أو يتصنع أو يتخذ بين الناس وبين قلبه حجاباً .

كنت أود لو استطعت أن أروى لك أطرافاً من شعره ، ولكن كتاب الأغاني قريب منك فاقرأ فيه أخبار يزيد بن مفرّغ ، فسترى فيه عجباً من المعجب وسترى أن لحية ضخمة قد عبثت بها الريح ذات يوم فأضحكت شاعراً وأطلقت لسانه بيت من الشعر ، وكانت من أجل ذلك مصدر محنة مروعة اتصلت أعواماً وشقى بها شاعر وشقيت به أسرة من أشرف العرب ، ولكنها تركت لنا أدباً فيه المتاع كل المتاع .

ط حسين